

انشطار الذات في الرواية السيرذاتية النسوية العربية.. قراءة ثقافية في "يوميات مطلقة" لهيفاء البيطار

The Splitting of the Self in the Arab Feminist Autobiographical Novel: A Cultural Reading of A Divorced Woman's Diary by Haifa Bitar

ط.د. رؤوف مشروم* (1)

جامعة الجزائر-2، (الجزائر) مخبر الترجمة والمصطلح

raouf.macheroum@univ-alger2.dz

أ.د. رشيد كوراد (2)

جامعة الجزائر-2، (الجزائر) مخبر الترجمة والمصطلح

kouradrachid@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/12/26	تاريخ القبول: 2025/12/25	تاريخ الإرسال: 2025/09/29
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

لقد عرفت المرأة العربية تحولات متباينة بصفتها أنثى تواجه مجتمعا أبويا، اضطرها أن تتجاوز مع واقعها المعيش. وقد ترك هذا كله آثاره على المنجز الأدبي النسوي في شتى مظهراته الأجناسية، ومن بينها رواية السيرة الذاتية. تجمع هذا الأخيرة بين فنيات الرواية وخصائص السيرة الذاتية في تركيبة استثنائية تستدعي حضور الخيال وتحقق الميثاق السيرذاتي عبر عقد معنوي بين المؤلف وقارئه. وهو ما افترضنا أنه متجسد في نص «يوميات مطلقة» للروائية السورية هيفاء بيطار؛ وبناءً عليه نطرح التساؤل التالي: كيف استطاعت الشخصية البطلة كذات خاضعة أن تتجاوز فاجعة الطلاق وتتخلص من سوداويته وتنطلق نحو الانعتاق من خلال ما يبوح به النص؟

الكلمات المفتاحية: رواية السيرة الذاتية، الأدب النسوي، أدب الاعتراف، هيفاء البيطار.

* المؤلف المرسل

الملخص باللغة الأجنبية :

The Arab woman has experienced varying transformations as a female confronting a patriarchal society, compelling her to respond to her lived reality. All of this has left its mark on feminist literary production in its various generic manifestations, including the autobiographical novel. The latter combines the techniques of the novel and the characteristics of autobiography in an exceptional blend that invites the presence of imagination while fulfilling the autobiographical pact through a moral contract between the author and the reader.

This is what we assume to be embodied in the text "Diary of a Divorced Woman" by the Syrian novelist Haifa Bitar. Accordingly, we pose the following question:

How was the protagonist, as a subjected self, able to overcome the trauma of divorce, free herself from its bleakness, and move toward liberation through what the text reveals?

Keywords: Autobiographical Novel; Feminist Literature; Confessional Literature; Haifa Bitar.

1. مقدمة:

مثّلت السيرة الذاتية للمرأة العربية متنفساً تروي عبره تجاربها الشخصية التي تستعرض جملة من الصراعات التي عايشتها بصفقتها أنثى في مجتمع عربي تقليدي يدين بالطاعة لنظام أبوي صارم، ويقرّم من الدور الاجتماعي لهذا الكائن الهشّ. إنّه مع تنامي الوعي الذاتي لدى هذه المرأة تجاه هويّتها الجندرية وحقوقها الاجتماعية المسلوبة؛ كان لزاماً أن تسعى إلى خوض التحديات بتقديم نقد مباشر لتلك التمثيلات التي حاكها الرجل/ المجتمع الأبوي ضدّها ومحاولة تفكيكها أو خلخلتها على الأقل للظفر بأملٍ تغيير وضعها المزري في المستقبل القريب.

لقد مرّت الذات الأنثوية بمجموعة تحولات اجتماعية ونفسية نتيجة لتأثرها بالمتغيرات التي تطرأ على الواقع تأثيراً مباشراً أو غير مباشر، ممّا انعكس بالضرورة على المنجز الأدبي عموماً، والمنجز النسائي بوجه خاص¹.

ويمكن اعتبار تدوين السيرة الذاتية بمثابة السلاح الثقافي لردّ عدوان تلك الممارسات المتعسّفة المذكورة آنفاً، «باعتبار الكتابة في حدّ ذاتها لحظة عري، لا يجوز للمرأة ممارستها لارتباطها بحياتها والحياة الخاصة ممن تربطها بهم علاقة»²، وردّاً بالكتابة على منظومة فكرية جائرة في تعاملها مع قضاياها، على رأسها قضية الهوية الجندرية. كما يحاول الردّ بالكتابة نسجَ خيوط خطاب أدبيّ ذي طابع

اجتماعي بالدرجة الأولى، يتواءم مع التطلعات الجديدة للمرأة المعاصرة، رغم ما يعتره من تهم كـ«الكشف غير اللائق والمنحط لخفايا النفس وعن الخيانات غير المستساغة، وممارسة الكذب الذي لا مفر منه...»³.

والسيرة الذاتية -كما يؤكد الناقد التونسي محمد الباري- لا تُكتب بأسلوب واحد، بالرغم من الظواهر الإنشائية المشتركة بين كل تلك الأساليب⁴، ومن هنا تأتي رواية السيرة ذاتية كوسيلة مزدوجة تجمع بين خصائص السيرة الذاتية وفنّيات الرواية في توليفة تتوسل بالخيال لضمان الحد الأدنى من الجمالية المتوسّمة في العمل الأدبي مع تحقّق الميثاق السيرذاتي الذي يمثل العقد المعنوي بين المؤلّف وقارئه.

لقد وقع اختيارنا على نصّ «يوميات مطلّقة» للروائية السورية هيفاء بيطار، حيث تروي تجربتها كامرأة دخلت بيت الزوجية وغادرته مبكراً حاملة في أحضانها طفلة، لتواجه منفردة الحياة بكل تناقضاتها وقبحياتها وقسوتها. فهل نحن بإزاء نصّ يقف على مسافات متباينة من الرواية والسيرة الذاتية واليوميات؟ وإلى أيّ من هذه الثلاثة ينتمي هذا النصّ؟

2. مسألة أجناسية

1.2 . رواية.. سيرة ذاتية أم يوميات؟

تتشترك كلّ من الرواية والسيرة الذاتية واليوميات في أنّ جميعها أشكال سردية، غير أنّ لكلّ منها خصائص فنّية وبنوية تُميّز الأجناس والأنواع عن بعضها بعضاً. وهذه الخصائص تشتمل على طبيعة السرد (خيالي أو واقعي)، ونمط الشخصيات (متخيّلة أو حقيقية)، ونوع الحبكة (معقّدة أو بسيطة) وطبيعة اللغة (أدبية ثرية أو بسيطة مباشرة)، والغرض (وظيفة جمالية أو وظيفة توثيقية).

وفيما يلي جدول يتضمّن تلك الفروق الفنّية والبنوية لكلّ من الرواية والسيرة الذاتية واليوميات:

الجدول 1: الفروق البنيوية والفنية لكل من الرواية والسيرة الذاتية واليوميات

اليوميات	السيرة الذاتية	الرواية	
شخصية وتسجيلية	واقعية وسردية	خيالية وإبداعية	طبيعة السرد
مفتوحة وغير مترابطة	تسلسلية وسردية	متكاملة ومحكمة	نمط الشخصيات
شخصية واحدة (كاتب اليوميات)	شخصية واحدة	متعددة ومتنوعة	نوع الحبكة
يومي وحقيقي	تسلسلي وحقيقي	مرن ومتغير	طبيعة اللغة
التعبير عن الذات والتسجيل اليومي	توثيق حياة شخص	الترفيه والتأثير	الغرض

المصدر: الباحث

فالمُدونة المختارة «يوميات مطلقة» تحمل في ثناياها خصائص الرواية من سرد ذي طبيعة خيالية يقترب ويبعد عن الواقع حسب السياق، كما تحوي حبكة متكاملة يتنامى من خلالها الصراع تدريجياً حتى يصل إلى العقدة فالحل، وذلك باستخدام لغة سهلة لا تخلو من تراكم بلاغي يختبئ وراءها حس فني رفيع؛ إلا أن الشخصيات - بما فيها شخصية البطلة - هي شخصيات حقيقية، وهو ما يحيلنا على السيرة الذاتية حيث يقع التركيز على شخصية هيفاء (المؤلفة ذاتها) التي تتناول فترة وجيزة من حياتها معتمدة على وقائع حقيقية، ابتداءً من قصة زواجها التي لم يكتب لها الاستمرار، ثم ما تلاها من فجيرة طلاقها التعسفي، وأخيراً ما عاشته من وقائع كامراً مطلقة وكأمّ وكعاملة (طبيبة). ويتقاطع هذا النص مع خصائص اليوميات من خلال السجل الدوري وإن لم يكن بشكل يومي مستمر - الذي يوثق - دون تاريخ محدد - خارطة الأحداث وما يصحبها من مشاعر وأحاسيس التي مرت بها الشخصية البطلة، ولعل هذا ما حدا بالكاتبة إلى إطلاق عنوان «يوميات مطلقة» على نصها.

لقد تولّد لون أدبي جديد من الرواية التي استقرّ الرأي على أنّها جنس أدبيّ منفتح على غيره ومتضمّن لكافة مظاهر التفاعل والتداخل الأجناسي، ومن بين هذه الأجناس السيرة الذاتية. وقد أطلق على

هذا النوع «رواية السيرة الذاتية» حيث تطمح -بشكلها الهجين- أن تستقلّ أدبيا بما لها من خصائص تحفظ تميّزها ومفارقتها لأنواع المجاورة⁵.

وبالنظر إلى الخصائص البنيوية والمميزات الفنية لنص «يوميات مطلقة» التي سبق وتطرّقنا إليها؛ فإنّ النوع الأدبي الذي ينتمي إليه أو يمكن تصنيفه ضمنه هو رواية السيرة الذاتية الذي يُعتبر أحد فروع جنس الرواية؛ وهذا النوع الأدبي كـ«مقاربة لا يقلل من شأنها ما سمّاه [فيليب] لوجون بالميثاق، أو هذا الالتزام الذي يظهره المؤلّف ويأخذ قيمة ميثاق. كما لا يعوزها ما يعلّل معرفة الذات في روايتها عن سيرتها»⁶. وسنرى من خلال التحليل تجليات تلك الخصائص والمميزات التي تستثمر في كلّ من الرواية والسيرة الذاتية وأيضاً اليوميات في النص المختار.

2.2 البناء السردى لـ«يوميات مطلقة»:

بنّت الكاتبة هيفاء بيطار فصول روايتها السير الذاتية على نمط اليوميات -على الأقلّ في شكلها الخارجي-، إذ إنّ المشاكل الوجودية (الأنطولوجية) يتم اكتشافها والتعبير عنها عن طريق هذا النمط من التدوين⁷ فـ«هيفل كان على حقّ حينما تصوّر العالم على أنّه انكشاف لصراع الرغبات، من أجل نيل الاعتراف؛ أي من أجل تغييره ليغدو أفقاً غائباً للتغيير»⁸. اتخذت الكاتبة لكلّ فصل عنواناً له دلالة يمكن استخلاصها من قراءة الفصل نفسه، وكلّ هذه الفصول مرتبطة بالفصل الأول علبة السنوات، حيث تقول في بدايته: «أستطيع أن أنفصل عن تلك المرأة التي كنتها... أضع رجلاً فوق رجل... وأستعيد... الأحداث التي أحبّ، ذلك أنّني جمعت كلّ هذه الأحداث أو الظروف أو السنوات في علبة كبيرة...»⁹. هذه العلبة قد حوت مجموعة بطاقات، كلّ بطاقة مكتوب عليها كلمة تدلّ على حادثة ما؛ تخبرنا الكاتبة أنّها جمعت تلك البطاقات على مرّ السنين التي اختارت فيها الكتابة، ذلك الملاذ الذي انتشلها من محاولات الانتحار «أتخيّل أنّي بدأت في أضحك وأنا أقترّب من الموت... وأرفع نظري عن البودرة لأرى قلّمي مستريحاً فوق أوراق... كأنه يقترح عليّ نزهة قصيرة معاً»¹⁰.

لقد أطلعها -كما تزعم- هذا القلم على سرّ الأسرار ونبوءة النبوءات وكشف لها أنّ «لا توجد لذة في العالم تفوق لذة الاعتراف، خاصة إذا كان اعترافاً صادقاً، له هدف إنساني»¹¹؛ إنّها تعتبر هذه

اليوميات بوحا من نوع استثنائي، تتوجّه به إلى الإنسانية لرفع الظلم عن المرأة المظلومة والمسحوقة بسبب التقاليد المستبدّة والأنساق الجائرة، يحدها طموح وأمل بأنّ «هذه التقاليد ستتغير مع الزمن»¹². كما تطلّعنا في نهاية هذا الفصل عن خطّتها في كتابة هذه اليوميات: «أفتح علبة السنوات... وأسحب ورقة كما نسحب ورقة يانصيب من البائع... فأستلقي على الأريكة وأضع الورقة على جبیني، ويتلقى دماغي الشيفرة -الثالوث- ويبدأ بعرض الفيلم المثير على شاشة كبيرة يخلقها خيالي»¹³. وبهذه الطريقة استحال السرد سلسلة قصص تشبه في شكلها الخارجي اليوميات من خلال عملية التوثيق، ففي «هذا الشكل الروائي يكون الكاتب على وعي تام بالتفتّت الداخلي للذات والذي ينعكس في السلوك الخارجي»¹⁴، وتختلف عنها في لغتها السردية المليئة بالإحساس الفنّي والصور البلاغية، فيها من تقنيات الاسترجاع والاستباق، وفيها من الحركات السردية الشيء الكثير.

3 صراع ذاتٍ من أجل الاعتراف في «يوميات مطلّقة»

1.3. طائر العنقاء في عاصفة النار

تروي هيفاء بيطار في هذه الرواية قصة زواجها الذي لم يُكتب له أن يعمر، بسبب عناد كل من الزوج والزوجة (هيفاء) واستبداد كل طرف برأيه «اشتعلت خلافاتنا مجدداً، ولم نعد نحتمل مشاكلنا الانفجارية المستمرة، العنيفة بيننا. صار البيت ساحة حرب وقتال ودمار»¹⁵. بدأ الخلاف لما أبدى كل من الزوجين عدم استعدادهم لكي يتنازل أو يضحي من أجل الآخر، حتى في وجود طفلة بينهما «كان يقبع في أعماقه رجل شرقي متسلط يريد أن يحكم ويتسلط، لن أظلمه وحده وأقول انه مدع، لأنني اكتشفت أيضاً أنني مدعية... واكتشفت عند أول محك أنني أرسب في الامتحان»¹⁶. ولم يقع في خلدها أن تقرّ طبول حربٍ لا تهدأ بعد قبولها اقتراح أحد أقربائها في الذهاب عند أهلها لمدة أسبوعين أو ثلاث خاصة وهي ما تزال في فترة نفاس بعد إنجابها ابنتها، «عسى المدة تهدئ النفوس، لكن النفوس شحنت بكامل طاقات الناس... وسقطنا في الفخ ووقعنا فريسة الكلام»¹⁷.

صوّرت الكاتبة نفسها بأنها ضحية زوج نرجسي يتركز حول نفسه، يظهر بمظهر المثقف صاحب الفكر الرفيع كما جاء وصفه في الرواية، بيد أن بداخله رجل شرقي متمزمت، ينظر لهذه الذات الأنثوية

نظرة تقليدية متغاض عن كل ما يميزها ككائن فاعل في المجتمع. وصورت نفسها على أنها امرأة غير قابلة للرضوخ، لها كيائها المستقل الحر، ولها رؤاها تجاه الحياة والوجود، ولها قبل ذلك طموحها وخارطة أهدافها التي تسعى لإنجازها أولاً بأول.

ولعل مشهد جلسة الصلح يعبر عن ذلك التنصل من مسؤولية الإسهام في خلق الشرخ: «...طلب مني المطران... هل أنا مستعدة أن أرجع إلى زوجي؟... قلت: أجل أنا مستعدة شرط أن يحترمني ويعاملني معاملة حسنة... وسأل المطران زوجي السؤال نفسه... وأخذ يتحدث أنني زوجة فاشلة لا أتقن الطبخ، ولا أحترم أصدقاءه وأهله، وأن عصيبي لا تحتمل»¹⁸. انصدمت الزوجة لسماحها زوجها يصفها بالفاشلة، ويمطرها بوابل من الصفات الشائنة التي تطرق سمعها لأول مرة، لتتكمش على نفسها وتتضاءل وتبلع لسانها دون ينقطع عنها تعجبها من إقراره باستعداده للرجوع إليها وكبده تحترق حقدا منها(!). فلم ينجح وقوف المطران إلى جانبها وتطيبه خاطرها من أن يطيب خاطرها: «أنت امرأة جيدة يا ابنتي ووجه الكلام إلى زوجي الوهمي وقال له: راجع نفسك يا بني ولا تهدم أسرتك»¹⁹.

يظهر لنا جليا محاولات الكاتبة في تقديم أقرب صورة لواقع الأحداث، بنقل المشاهد الحاسمة في تلك التجربة المريرة التي انتهت بطلاقها، وكذلك تصوير الشخصيات على ما هم عليه حقا، لا الاكتفاء بعرض انعكاس صورهم في عقلها مصحوبة بالمبالغة في الذم أو المدح. ورغم كل الحيلة والحذر ومحاولات التزام الحياد إلا أن صورة هذا الزوج الذي اتهمته بأنه تغير من شخص مرهف الحس حريص على إسعاد شريكته إلى شخص جلف بليد المشاعر، كل هذا دفع بها إلى طرح التساؤل إزاء هذا التغير ومصير العلاقة: «كيف يمكن لعلاقة بهذه الحلاوة أن تنتهي إلى المحاكم والدعاوى، وتسعى إلى الطلاق!»²⁰.

لم تترك جلسة الصلح وأجوبة الزوجين -خاصة الزوج- احتمالا لإصلاح ذات البين؛ فكلّ منهما غير مستعدّ للتنازل أو التضحية في سبيل العودة إلى بيت الزوجية. وهذا ما فهمته هذه الزوجة في طريق عودتها إلى منزلها، «فوجدنا بكلامه عني بهذه الطريقة المؤذية التي لا تدلّ على حسن النيات»²¹.

لقد تسببت هذه الأزمة في دخول هيفاء في حزن أسود وعراك مع الغل تجاه هذا الزوج المستهتر؛ أدخلتها في حالة من السوداوية المتطرفة، وأفقدتها استطعام الحياة والتمتع بزهرة الشباب؛ غير أنّ مرور الشهور والأيام كان كفيلا بجعلها تتجاوز الأزمة والتعافي من الأزمة. وانتاب هذه الزوجة ندمٌ شديد تجاه ما بدّته من طاقة سلبية تسببت فيها تلك الأزمة، فأنستها أنّها ما تزال في مستقبل العمر، «أدركتُ أول حقيقة غيّبها الحقد الأعمى عن عيني لسنوات، أدركت أنّي شابة»²².

أثمر هذا الزواج صبية تخبرنا الرواية لاحقاً أنّ اسمها لمى، غير أنّ هذه الأم تر فيها عبئاً. ورغم حداثة سنّها إلا أنّها كانت تتواصل معها بشكل دائم، وتربط جسوراً تواصلية معها باستمرار، حتّى أنّها كانت أول من أخبرتها الأم عن نبأ اعتاقها ممّا كانت تعانيه جرّاء تلك العلاقة المسمومة: «قلت لها: آه يا حبيبة الماما، لقد شفيت...»²³.

2.3. اعتاق.. أم انتقال من قيد إلى قيد؟

دخلت هذه المرأة في مرحلة جديدة، حاولت خلالها أن تعوّض كل ما فاتها، وأن تعيش وتسترجع لذائذ الزمن الضائع: «وجدتني أهزأ من مشاكل الماضي... ولخصت كلّ مشاعري المهدورة بسخاء فيما مضى بكلمة صغيرة تصلح أن تكون فلسفة أحيانا هي كلمة طظ»²⁴.

وكانت من تلك التعويضات قيامها برحلة إلى مصر، تعرفت خلالها على أماكن وشخصيات عامة وخاصة، من بينها لقائها غير المرتّب مع الكاتب الشهير نجيب محفوظ، «ناداني التاجر المصري بصوت مرتفع: ... إنّه نجيب محفوظ ... وأشار بيده إلى الرجل إلى معلمي، إلى مبدع الثلاثية وأولاد حارتنا...»²⁵. لقد كان لهذا اللقاء على اقتضابه أثراً كبيراً على نفسه هيفاء بيطار لدرجة أنّها فضلتها عن كل الأشياء ذات القيمة التي تزخر بها مصر: «لو خيروني هل تزورين الأهرامات أو المتحف... إلى ما هنالك من المغريات، أم تلتقين الكاتب الكبير نجيب محفوظ، لأجبت دون ترددٍ إنني أتمنى أن ألتقي الكاتب الذي جعلني ببساطة أدور في فلكه...»²⁶.

كما كشفت لها هذه الرحلة عن وجود مساحة أكبر من التي كانت تعيشها في موطنها اسمها الحرية: «ما الذي أعجبك أكثر شيء فيها [أي مصر] ودون تفكير وجدتني أجيب: الحرية»²⁷. كم

اكتشفت أنها ما تزال محافظة على جاذبيتها، وأنه يمكنها لفت نظر أفضل الرجال وأكثرهم وسامة وحظوة عند النساء: «كنت أجلس في بهو الاستقبال... وحانت من فارس أحلام الأنسات، وفاتن العذاري، التفاتة سريعة، فلمحني على عجل... يبتسم لي ابتسامة خفيفة لم يلحظها أحد غيري...»²⁸. ولكن ماذا سيغير إعجاب رجل بامرأة معلقة بين السماء والأرض -كما يقول الكاتبة- وفوق هذا لديها طفلة: «قلت ببساطة: "أرغب في شراء هدية لابنتي". وأحسست باضطرابه. وسقطت نظرتي على يدي...»²⁹...

ما تزال هذه المرأة معلقة، فلا هي متزوجة كم الأزواج ولا هي مطلقة وحبلها على غاربها (كما يقول المثل)؛ وهو الأمر الذي جعل هذا الزوج يطمع في العودة إليها بعد طول هجر. وبعد مرور سنوات أربع، ها هو يبعث بمحاولة يائسة لاسترضائها بواسطة طبيب زوجته النفسي: «...لقد زارني زوجك منذ أيام وأخبرني أنه على استعداد أن تفتح صفحة جديدة في حياتكما»³⁰. وانتظر الطبيب ردّة فعل غير ما ظهر من الزوجة: «أسفة يا سيدي، لقد انتهى هذا الإنسان من نفسي»³¹.

لم يكن هذا الطبيب النفسي -الذي أطلقت عليه صاحب السيادة- سوى صورة مكزرة عن المجتمع الأبوي الذي يناصر الرجل مهما كان مجحفا في قراراته وتصرفاته تجاه المرأة، وأنّ له أن يهجر من شاء وأن يعود متى شاء: «أنا لا أزال على ذمة رجل، لا أزال أحمل بجدارة لقب زوجة، لي زوج وهمي تفصلني عنه أربع سنوات، لكنه زوجي وأنا زوجته، شيء مضحك مقرف جدا»³².

راحت هذه الذات النسوية المكلومة تتخيل حوارا موازيا مع طبييها النفسي تبثه خلالها ما عجزت أن تصرّح به في الخطاب الحقيقي، «أتخيل أنني أقرب من مكتب صاحب السيادة...»³³، وتُسائله هو والمجتمع الأبوي الذي يدين له بالولاء والطاعة: «كيف عاش هو [أي زوجها] هذه السنوات الأربع، ألم يعشق يا سيدي، ألم يتصل بالنساء؟»³⁴. ثم بعد إجابات متحيّزة إلى جانب الزوج من طرف هذا الطبيب، تعود لتعترض عن هذا المنطق المختل في لوم جنس دون جنس: «أوه يا سيدي، لماذا على المرأة أن تغفر لزوجها مهما زلت قدمه وأخطأ وزني، أمّا الرجل فلا يغفر للمرأة أبسط هفوة»³⁵. لم يلقط الطبيب سوى كلمة زنى، وجعل يتعوذ منها مرات ومرات.. كان ذلك الحوار المتخيل ملاذا لهذه المرأة التي

لم تتجرأ أن تجاهر الطبيب بأنها عشقت رجلاً آخر رغم أنها ما تزال على ذمة زوجها الوهمي، والسبب الحقيقي لهذه الخطيئة هو الهجر، ولا شيء غير الهجر!

انقضى وقت تلك الجلسة على غير مراد الطبيب النفساني، وخرجت من عنده يحدها شعور بالغيرة، لدرجة أنها لم تتعرف على ذاتها الأنثوية: «وتساءلت بجديّة وصدق[: من أنا؟ هل تزوجت حقاً؟ وماذا أريد من الحياة؟ وكيف دخلت هذه الدوامة الغريبة هذه؟»³⁶. فهذه الذات حين عجزت أن تحقق هويتها الأنثوية كما خطّطت لها، كان من الطبيعي أن تنسلخ منها ليغزوها الشعور بالاغتراب، وتبدأ رحلة البحث عن الذات في مجاهل الضياع.

أدخلتها تلك الاستقهامات في دوامة التساؤلات عن جدوى قراراتها السابقة، ومن تساؤل صغير إلى تساؤل أكبر منه، شرعت الأسئلة تتضخم أكثر وأكثر حافرة في الذاكرة عن جواب ما: «لماذا تزوجته إذا، هل خضعت لضغوط معينة، لا أبدا... أهلي لم يروه مناسباً لي... وتركوا لي حرية القرار...»³⁷. وبعد إيراد استرجاعات عديدة لظروف زواجها وفرضيات أسباب قبولها، راحت تقرّ بالحقيقة كما تراءت لها في ذلك الحين: «لا لم أكن ناضجة، كانت جرثومة خبيثة تفتك بأعصابي هي جرثومة الخوف»³⁸.

تمثلت هذه الجرثومة في خوفها من عدم الزواج، أي البقاء عانساً في مجتمع يعتبر هذه الظاهرة أكبر ابتلاء قد تتعرض له امرأة ما. لقد دفعت ضريبة إرضاء المجتمع من حولها وإن كلّفها ذلك خسران نفسها، «تزوجت بهدف الزواج، كأن الزواج ضريبة لا بدّ منها...»³⁹.

إن تتبع عناوين الفصول: محكمة الاستئناف، الزلزال، رحلة الحرية، صاحب السيادة، جنون... سيلخص لنا مسيرة تلك العلاقة كما يشير إشارات خاطفة إلى الخطوات الشعورية التي مرّت بها هذه الذات الأنثوية في كل محطة تنزل بها وتعيشها ثم تنتهي بمغادرتها إلى غيرها من المحطات.

ربما يبدو الطلاق سواء كان طلاقاً فعلياً أو طلاقاً عاطفياً هو الباب الذي ستلج من خلاله المرأة رياض السعادة والانعتاق، غير أن للواقع كما هو كائن رأياً آخر تصوره الكاتبة في صورة مؤلمة وقاسية «لقد اكتشفت الرائحة الخاصة بالمطلقة. تلك الرائحة المميزة التي تستميل كل الرجال الذين يعانون من الملل الزوجي، بل تحرّض في الأزواج المخلصين حبّ المغامرة»⁴⁰. وصورة هذه المطلقة في عين الرجل

هي من تمثل المجتمع لها، صورة ظالمة تشكلت عبر الأجيال وتم ترسيخها بشكل لا يقبل المناقشة، حتى باتت صفة المطلقة مرادف للمرأة غير الشريفة، لـ«تفقد المطلقة من حيث لا تدري كل حصانة أخلاقية، ويتغير الناس في تفسير شكلها وسلوكها وحركاتها»⁴¹.

ولعل من أقسى الظروف التي تلحق هذه المطلقة تربية الأبناء في غياب الزوج والأب، فتغدو الأم عندئذ أمًا وأبا، منشطرة نصفين، وما حال هذه الأم حيال أسئلة ابنتها التي تحفر لتبلغ جذور الأزيمة: «تسألني لمى فجأة: أين خاتمك يا ماما؟ أضحك: ماذا لو أجبتها أنني بعته. لكنني أقول: لقد ضاع يا لمى»⁴². تظهر البنت اقتناعا مبدئيا لكن الشك يعود ليجعل تسأل من جديد: «ولكن كيف تضيع الماما أغراضها، وهي توصيني ألا أضيع أغراضي؟»⁴³.

لقد كان الأحرى أن تكون العلاقة بين شخصين هي ثمرة ذلك الانسجام بينهما، وأي نقص في أحد الطرفين يجب أن يعوضه الطرف الآخر بالبذل والعطاء اللامشروط. فإذا رفض ذلك الطرف الثاني أن يسد الثلمة التي خلفها الطرف الأول، فسيستحيل ضمان السلام في تلك العلاقة، وستثور لا محالة الحروب في عرين تلك العلاقة. فكيف بزوجين يكتشفان بعد سنة زواج أن الاختلاف في الوسائل والرؤى والأهداف قد يصل إلى حد النقيض، وأن مشاعر الحب لم تعد تكفي لتخفي عيوب هذا وتلك، وحتى وجود ثمرة ذلك الحب الصبية المولودة حديثا، ليس كافيا لتقديم تضحيات تقف من العمر والنفس والمزاج.

4. خاتمة:

لقد تناول هذا النص لهياف ببطار حالة المرأة المعلقة والمطلقة ممن فضل خيار الانعتاق مع ما فيه من تحديات وصعوبات على احتمال الإهانة والمذلة تحت ربة زوج ذكوري متسلط، ومهملا لا يملك حس المسؤولية، وخوض تجربة العمل والأمومة منفردة وحيدة.

ينتمي هذا النص «يوميات مطلقة» إلى رواية السيرة الذاتية لأنه -بشكله الهجين- حوى من الناحية الشكلية كل من: مقومات وخصائص السيرة الذاتية التي دعمتها توثيق أحداث الشخصية البطلة التي هي نفسها الكاتب، وأسلوب الرواية الذي أساسه التخيل. ومن ناحية موضوعية يصنف نصا نسويا بامتياز،

لاحتوائه على أغلب القضايا التي يشتغل عليها الفكر النسوي التي تمت معالجتها برؤية نسوية متحررة كظاهرة المجتمعات الأبوية ومحاولة تفكيك مركزياتها، وقضايا الجندر وعمل المرأة وحقوق المرأة المطلقة والإنجاب والأمومة، وإعادة النظر في الحريات... جاءت أغلبها متحيزة للمرأة مناصرة لقضيتها؛ وهو ما يترك تساؤلا ملحا: ماذا لو نشر هذا الزوج نسخته من الحكاية «يوميات مُطلق»، هل كنا سنتعرف على أسباب غير التي حكته هذه الزوجة، مكتشفين جوانب مغيبة عن تلك الحقائق التي ورت في هذا النص؟!

5- الهوامش:

1 (ينظر: نابي، ممدوح فراج، (2011)، رواية السيرة الذاتية في مصر، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ص161.

2 (غربي، ويزة، التحايل على الميثاق السيرذاتي في السيرة الذاتية النسائية، مجلة الآداب واللغات، مج7، ع2، ديسمبر 2018، ص318.

3 (مندليسون، دانيال وآخرون، (2006)، نهاية الرواية وبداية السيرة الذاتية، تر: حمد العيسى، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ص139.

4 (ينظر: الباردي، محمد، (2005)، عندما تتكلم الذات (السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث)، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ص149.

5 (ممدوح فراج نابي، رواية السيرة الذاتية في مصر، ص10.

6 (العيد، يمنى، السيرة الذاتية الروائية، مجلة فصول، مج5، ع4، شتاء 1997، ص13.

7 (ينظر: أبو النجا، شيرين، السيرة الذاتية النسوية، مجلة نزوى، ع12، أكتوبر 1997، ص79.

8 (بومسهولي، عبد العزيز، (14 جانفي 2026)، الفلسفة وإعادة التفكير في الممارسات الثقافية: <https://www.alfaisalmag.com/?p=987519397>

9 (بيطار، هيفاء، (2006)، يوميات مطلقة (رواية)، الجزائر، دار الاختلاف، ص7.

10 (المصدر السابق، ص8.

11 (المصدر السابق، ص.ن.

12 (المصدر السابق، ص9.

13 (المصدر السابق، ص9.

- 14 (أبو النجا، شيرين، السيرة الذاتية النسوية، ص80.
- 15 (بيطار، هيفاء، يوميات مطلقة (رواية)، ص35.
- 16 (المصدر السابق، ص.ن.
- 17 (المصدر السابق، ص36.
- 18 (المصدر السابق، ص33.
- 19 (المصدر السابق، ص.ن.
- 20 (المصدر السابق، ص32.
- 21 (المصدر السابق، ص34.
- 22 (المصدر السابق، ص39.
- 23 (المصدر السابق، ص.ن.
- 24 (المصدر السابق، ص40.
- 25 (المصدر السابق، ص52.
- 26 (المصدر السابق، ص.ن.
- 27 (المصدر السابق، ص46.
- 28 (المصدر السابق، ص.
- 29 (المصدر السابق، ص.
- 30 (المصدر السابق، ص56.
- 31 (المصدر السابق، ص58.
- 32 (المصدر السابق، ص59.
- 33 (المصدر السابق، ص60.
- 34 (المصدر السابق، ص.ن.
- 35 (المصدر السابق، ص61.
- 36 (المصدر السابق، ص62.
- 37 (المصدر السابق، ص63.
- 38 (المصدر السابق، ص.ن.
- 39 (المصدر السابق، ص66.
- 40 (المصدر السابق، ص85.

- 41 (المصدر السابق، ص86.
- 42 (المصدر السابق، ص91.
- 43 (المصدر السابق، ص.ن.

6. قائمة المراجع:

• المؤلفات:

- 1) بيطار، هيفاء، (2006)، يوميات مطلقة (رواية)، الجزائر، دار الاختلاف.
- 2) مندليسون، دانيال وآخرون، (2006)، نهاية الرواية وبداية السيرة الذاتية، تر: حمد العيسى، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون.
- 3) الباردي، محمد، (2005)، عندما تتكلم الذات (السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث)، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- 4) نابي، ممدوح فراج، (2011)، رواية السيرة الذاتية في مصر، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة.

• المقالات:

- 5) أبو النجا، شيرين، السيرة الذاتية النسوية، مجلة نزوى، ع12، ص ص 79-84، أكتوبر 1997.
- 6) غربي، ويزة، التحايل على الميثاق السيرذاتي في السيرة الذاتية النسائية، مجلة الآداب واللغات، مج7، ع2، ص ص 315-327، ديسمبر 2018.
- 7) العيد، يمنى، السيرة الذاتية الروائية، مجلة فصول، مج5، ع4، ص ص 11-24، شتاء 1997.

• مواقع الانترنت:

- 8) بومسهولي، عبد العزيز، (14 جانفي 2026)، الفلسفة وإعادة التفكير في الممارسات الثقافية: <https://www.alfaisalmag.com/?p=987519397>